الجبرتي.. صوت الحرية الخالد

في بيئة دينية علمية ثقافية نشأ الشيخ الجليل المؤرخ (عبد الرحمن الجبرتي) فحفظ القرآن في الحادية عشر من عمره، وتلقى دراسته في الأزهر الشريف على يد علمائه الكبار الأجلاء من أصدقاء أبيه، وكان متصوفًا ملتزمًا بالسنة، وليس من هؤلاء المشعوذين المبتدعين الذين يدعون التصوف وهو منهم براء.!

عاصر الجبرتي فترة حكم المماليك قبل الحملة الفرنسية، وعاصرها حين مجيئها لمصر، وسجل أحداثها ولحظات خروجها، وعايش كذلك التحولات السياسية ودفع الشعب بمحمد علي لسدة الحكم، ثم تصفيته لكل من مد إليه يد العون والمساعدة، وعاصر التغييرات التي قام بها، وانتقد كثيرًا من تصرفاته، مثل نفيه للسيد عمر مكرم، وقتله لقواد الثورة الذين جعلوه حاكمًا، وضربه للعلماء بعضهم في بعض، ومذبحة المماليك الشهيرة ومصادراته لأراضي الأوقاف، وضمها إلى حيازة الدولة، وحروبه ضد الوهابيين، والتكاليف التي أنفقها في هذه الحروب.. كل هذه الانتقادات التي وجهها الجبرتي للحاكم الجائر محمد علي، كانت صوت الحرية الذي مثله علماء الأزهر، في وجه السلطان الغشوم.. بل كانت إعلاءً لصوت الحق أمام صولة الباطل.. وكانت جرأة مدوية ضد حاكم غادرٍ خبيث، يبطش بكل من يخالفه وينكل بكل من ينتقده.! لكن هذا العسف لم يكن ليخيف الجبرتي الذي يعرف كعالم دوره في حماية الأمة وإظهار الحق والجهر بكلمته في وجه الطغاة.!

كان الجبرتي متواضعًا لا يذكر نفسه دومًا، ولا يوقع على ما يكتب إلا بقوله (الحقير)، وكان رقيق العاطفة نبيل الخلق.. وكان قوالاً للحق يَكره

الظُلم ويُحب العدل، فيذكر ظلم المماليك وما يصدر عنهم من تصرفات وأعمال توجب النقد.. كما انتقد العثمانيين ووصف مظالمهم وميل بعضهم للدنيا، ولم يمنعه النقد المستمر، أن يصف المحاسن لكل من ينقده.. لقد كان منصفًا وهي السِمة العظمى التي يتحلى بها المؤرخ الحصيف، وينتهج الأمانة والموضوعية والعزوف عن التعصب والتحيز الأعمى.. وهو نفس ما فعله حتى مع الفرنسيين الذين احتلوا أرضه وقتلوا شعبه.!

لقد واجه الجبرتي محمد علي بكثير من فظائعه البشعة، ومنها هذه الحادثة التي حدثت عام (١٢٣٤هـ) فيقول: " كان الباشا – أي محمد علي – بجهة الإسكندرية لحفر ترعة الأشرفية – المحمودية - فأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل، فكانوا يربطونهم بالحبال قطارات، وينزلون بهم في المراكب، وتعطلوا عن زروعهم، وقاسوا بشدة بعد رجوعهم في المرة الأولى، ومات الكثير منهم من البرد والتعب، وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحُفر (ولو فيه الروح) ولما رجعوا لبلادهم للحصيد طولبوا بالمال، وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة فول، وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون، والكيل الوافر، ثم يجيء الطلب للعودة إلى الشغل في الترعة، ونزح المياه التي لا ينقطع نبعها من الأرض، وهي في غاية الملوحة، والمرة الأولى كانت في شدة البرد، وهذه المرة الثانية في شدة الحر، مع قلة الماء العذبة فيقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة)

ولم يقف نقد الجبرتي لمحمد علي ونقل صورته الظالمة للتاريخ عند شخصه فحسب.! وإنما انتقد رجاله وعماله، فقد جمع الحاكم حوله مستشارين أجانب اتسموا بالسوء والغلظة وظلم الشعب، وليس بينهم رجل مخلص كالسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي! حتى أن الجبرتي أطلق عليهم لفظ الكلاب فيقول:

(إنهم ترأسوا، وعلت أسافلهم، ولبسوا الملابس الفاخرة، وركبوا البغال والرهوات، وأخذوا بيوت الأعيان التي في مصر القديمة وعمروها وزخرفوها، وعملوا فيها بساتين وجناين، وذلك خلاف البيوت التي لهم بداخل المدينة ، ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة[1] يطردون الناس من أمامه ومن خلفه) وهكذا يصفهم الجبرتي بالكلاب، ليعكس مدى الوضاعة التي عاملوا بها الناس.. ثم يصف مظالم واحدٍ منهم وهو (سليمان أغا السلحدار) فيقول: (كان يتمم عمائره في أسرع وقت، لعسفه وقوة مراسه على أرباب الأشغال والموانة، ولا يطلق للفعلة الرواح، بل يحبسهم على الدوام إلى باكر النهار، ويوقظهم آخر الليل بالضرب، ويبتدئون العمل من وقت صلاة الفجر إلى الغروب حتى في شدة الحر في رمضان، وإذا ضجوا من الحر والعطش أحضر لهم السقاء ليسقيهم)

إن هذه الانتقادات من هذا العالم المنصف الحر، لم يكن للطاغية محمد علي أن يتقبلها بصمت وترحاب، فإذا به يدبر كيده بليل حتى يؤذي الشيخ ويضربه في مقتل.. "لقد أصيب الجبرتي في أخريات أيامه بمحنةٍ قاسية ففي صباح ٢٨ رمضان عام ١٢٣٧هـ -١٨٢٢م وكان ابنه خليل عائدًا للبيت بعد صلاة الفجر، خرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه وخنقوه، وتناقل الناس والمؤرخون من بعدهم شائعات عن اشتراك مقربين من محمد علي في هذه المؤامرة، ولما علم الجبرتي بما حدث لولده وموته على هذه الصورة، وهو بين المرض والشيخوخة، أصيب بنازلة شديدة حطمت حياته، فترك الكتابة والتأليف وانقطع عن القراءة وألح عليه الحزن، وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره، وبقي في داره حزينًا أعمى إلى أن وافاه الأجل عام (١٢٤١هـ -١٨٢٥م) وقيل: إنه مات مقتولاً بمكيدة من محمد علي.. وليت هذا

---

١ - رماة السهام

فحسب.. فعقب موته احترق بيته بالصنادقية واحترقت معه المكتبة العظيمة الحافلة التي تركها له أبوه، والتي زاد هو عليها زيادة كبيرة، كما يذكر بعض المؤرخين، أن جزءًا من تاريخ الجبرتي كان يتضمن حوادث ما بد سنة (١٢٣٦هـ) ودفن الجبرتي مع أبيه ببستان العلماء"[١]

ولأنه الإنسان النبيل، والعالم الشهم النزيه، أبت عليه نفسه أن يتغاضى عن حسنات الطاغية، فإذا به يذكر بعض ما قدمه من أعمال توجب الشكر والمدح، حين سجل له إنشاءه لمصانع البارود، وسبك المدافع وصنع القنابل، وتشييد السفن، ومدارس الهندسة والطب، ومصانع نسج القطن والحرير والصوف والجوخ، وإعداد المخارط والسندلات والمناشير والآلات الغربية التي توجد في الغرب.! كما جمع ٤٠٠٠ غلام من أبناء البلد ليتعلموا تحت أيدي المهرة من الأجانب ويتشربوا منهم الصنعة والمهن، ويأخذوا أجرًا يوميًا، كما أجبر الناس على زرع شجر التوت على ضفاف الترع والأنهار، واستقدم اللبنانيين ليعلموا الفلاحين تربية دودة الحرير، فدعا (٣٠) أسرة لبنانية ووزعها على المديريات البعيدة، فكانت النتيجة ممتازة، شجعت على مضاعفة الأشجار، و أثبت الباحثون أن (١٥٠,٠٠٠) من العمال برعوا في نسج الحرير وهيأوه للتصدير.!

ويرحل الجبرتي، ويترك لنا هذا التاريخ العظيم، الذي كان نقلاً أمينًا لأحلك الفترات في تاريخ مصر.. ولم يكن مجرد كتاب أو كلمات، ولكنها كانت صرخة مدوية، وكلمة حق جريئة، وقف بها عالم أبي مخلص في وجه طاغية جبار، حتى ناله كثير من الأذى، ودفع حياته وحياة ولده؛ ثمنًا لجرأته وصدقه وإخلاصه للأمة والتاريخ والدين والضمير.!

---

١ - محمود الشرقاوي - مصر في القرن الثامن عشر